

## ملاحم الرومانسية في شعر إيليا أبي ماضي

عمرجان باله  
باحث الدكتوراه في قسم اللغة العربية،  
بجامعة كشمير، سري نغر

الأستاذ عبد الرحمن واني  
أستاذ في قسم اللغة العربية،  
بجامعة كشمير، سري نغر

### الملخص

يعتني المذهب الرومانسي بالنفس الإنسانية، وما تفيض به من عواطف ومشاعر وأخيلة، والتفت إلى العاطفة والشعور بديلاً من سيطرة العقل، وعالج موضوعات جديدة لم تألف في المنهج الكلاسيكي، وهو متّصف بالسهولة في التعبير والتفكير، وإرسال النفس إلى طبيعتها والإقبال إلى أهوائها، وهو مذهب متحرّر من قيود العقل والواقعية الظاهرين بوضوح في المذهب الكلاسيكي الأدبي. كما أنه يعتمد على أسس فلسفية خاصة يعتبر في أول ظهوره تجديداً في طريق الإحساس والتفكير والتعبير.

ولقد بدأت الرومانسية في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي، واكتسحت ثقافة أوروبا السائدة في ذلك الوقت، وحلّت محلّ الكلاسيكية. وما وصلت الرومانسية إلى العالم العربي إلا بعد ما انقضى عهد ازدهارها في البلاد الأوربية، وذلك عن طريق الجمعيات والمدارس التي تمّ تأسيسها بأيدي الأدباء والمبدعين العرب. وصاحبنا "إيليا أبو ماضي" استطاع أن يمثّل الرومانسية أحسن تمثيل، وهو من أولئك الشعراء الذين اتّبَعوا منهجاً موحّداً في الشعر، وقاموا بتأسيس مدرسة شعرية خاصة بهم—المدرسة الرومانسية—تبَنّوا أفكارها وأغراضها الشعرية، وقد ذاعت هذه النظرة الشعرية لجزالتها وعذوبتها، ولكونها أقرب إلى الناس بطبيعتهم وميولهم.

كلمات مفتاحية: الطبيعة، المرأة، الإحساس بالألم، الحنين إلى الوطن

### مقدمة

تعتني المدرسة الرومانسية بقضية الإنسان، والتعبير عما يغلب في ذاته، ودوره ومكانته في المجتمع، وتسعى إنشاء مجتمع مثالي ينجز عنه إنسان كامل يعيش عيشةً راضيةً بعيداً عن أي قيد وحبٍّ، ويُمكن أن يفرق بين الرومانسية كنزعة وبين الرومانسية كمذهب، إنّ الرومانسية كنزعة قديمةٌ في تاريخ الآداب، وتظهر منذ العصور في بعض الأغاني والأشعار،<sup>١</sup> وهي عندهم التحدّث عن النساء، ووصف ما يجده الشاعر خياليين من صباية، فوصف بعض شعراء الجاهلية المرأة وصفاً كاملاً؛ فيصفون وجهها وعينها وأسنانها وغير ذلك. فمن النماذج على هذه النزعة في الأدب القديم، قول عنتره بن شداد العبسي؛ شاعر الجاهلية في وصف النساء:

بَسَمَتْ فَلَاحَ ضِيَاءِ لَوْلُؤِ ثَغْرِهَا

فِيهِ لِدَاءُ الْعَاشِقِينَ شِفَاءُ

قال الشاعر عنتره بن شداد العبسي عندما وصف ابنة عمّه "عبلة بنت مالك" في هذا البيت: أنها إذا ابتسمت تجلّى الضوء من أسنانها، وهذا الضوء يكون شفاء للعشاق إذا نظروا إليها.

<sup>١</sup> أحمددي، عبد الحميد، "مظاهر رومانسية في شعر أبي القاسم الشابي"، فصلية إضاءات نقدية، العدد الرابع، شتاء، ٢٠١١، ص، ٢.

<sup>٢</sup> إبراهيم الأبياري، "شرح ديوان عنتره بن شداد، ط: ١٩٦٠، دار الكتب العلمية، بيروت، ص، ٦.

وأما الرومانسية كمذهب أدبي يمتاز بسمات خاصة، ويقوم على أسس فلسفية ونقدية ظاهرة، وتظهر فيه علاقة واضحة من التطور الفكري. ولم يظهر مفهوم الرومانسية عند النقاد لكثرة تعريفات للرومانسية التي قدمها أنصار الرومانسية ومعارضوها إلا أن ورد إجماع النقاد على تعريفها في "شلي في الأدب العربي في مصر" لجيهان صفوت رؤف نقلاً عن "دليل الرومانسية" لأرنست بيرنبوم، فهي "ضرب من ضروب العبث لتعدد مظاهرها واتجاهاتها": "بدأت في أوائل القرن التاسع عشر، وطغت على المذهب الكلاسيكي، ثم "قام المذهب الرومانتيكي على أنقاضه. ولم يتم لهذا المذهب الانتصار إلا بعد أن هوجمت حصون المذهب الكلاسيكي على يد الأدباء والفلاسفة من دعاة التجديد طوال القرن الثامن عشر وخاصة في النصف الثاني منه، فمهدوا الطريق أمام الرومانتيكيين الخالص فيما بعد".<sup>٥</sup>

والرومانسية لم تنحصر على أوروبا فحسب! بل تجاوزتها إلى سائر أنحاء العالم؛ لأنها تصوّر الجمال الفكري والروحي الذي يتفق مع الأوضاع التي كانت سائدة في مناطق مختلفة من العالم في ذلك الوقت، ولا سيّما العالم العربي.<sup>٦</sup>

### المذهب الرومانسي في الأدب العربي

يعدّ الشاعر خليل مطران أول من انتقل بالشعر الحديث إلى مرحلة جديدة في اتجاه الرومانسي، ثمّ قامت المدارس الأدبية التي برزت في "مدرسة الديوان" و"المهجر" و"أبولو". فقد صاحبت هذه المدارس إلى الاتجاه الوجداني في الشعر وتصوير ما يجيش في النفس من عاطفة وإحساس، والالتفات إلى الطبيعة من خلال عواطف الشاعر وأحاسيسه، والمطالبة بالوحدة العضوية للقصيدة، والتحرر من أسرار القافية الواحدة، والألفاظ الغربية، والصور التقليدية، وكان لهذه المدارس دور كبير في تمهيد الطريق أمام التيار الرومانسي.

وكانت مدرسة المهجر كغيرها من المدارس العربية التي تساهمت في تشييع المذهب الرومانسي، فظهر فيها علم من أعلام الشعر استطاع أن يمثّل المذهب الرومانسي أحسن تمثيل، وأن يحظ نصيبه بنشره إلى حد بعيد، وهذا العلم هو "إيليا أبو ماضي" شاعر المهجر الأكبر الذي كان أحد أقطاب الرومانسية العربية. وهو كشاعر رومانسي ركّز على الجانب الوجداني من التجربة الشعرية، وعالج فيها موضوعات رئيسية تتصف بكل مواصفات المذهب الرومانسي. فمن هذه الموضوعات؛ الطبيعة، المرأة، الإحساس بالألم، الحنين إلى الوطن.

### الطبيعة

كانت الطبيعة من الموضوعات التي برزت في معظم الأعمال الأدبية على مرّ العصور، وشعراء العرب منذ الجاهلية قد التفتوا نحو الطبيعة ومظاهرها، ووصفوها وصفاً دقيقاً. وكذلك "أبو ماضي" كشاعر رومانسي مزج بين إحساسه ومظاهر الطبيعة من حوله، فهو في قصيدته "المساء" يخاطب "سلى" في جو طبيعي يمتاز عناصره كلها بالكآبة والوجود، ولعلّ هذا

<sup>٣</sup> أحمددي، عبد الحميد، "مظاهر رومانسية في شعر أبي القاسم الشابي"، فصلية إضاءات نقدية، العدد الرابع، شتاء، ٢٠١١، ص٢.

<sup>٤</sup> جيهان صفوت رؤف، "شلي في الأدب العربي في مصر، ط: ١٩٧٦" دار المعارف، القاهرة، ص٢١.

<sup>٥</sup> د. محمد غنيمي هلال، "الرومانتيكية"، ط: ٢٠٠٣، نخبة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ص٧.

<sup>٦</sup> أحمددي، عبد الحميد، "مظاهر رومانسية في شعر أبي القاسم الشابي"، فصلية إضاءات نقدية، العدد الرابع، شتاء، ٢٠١١، ص٣.

الوجود والصمت الحائر انعكاس لكآبة سلمى وحنزها():

لا فرق عند الليل بين النهر والمستنقع  
يخفي ابتسامات الطروب كأدمع المتوجّع  
إن الجمال يغيب مثل القبح تحت البرقع  
لكن لماذا تجزعين على النهار وللدجى  
أحلامه ورغائبه  
وسمائه وكواكبه

يريد الشاعر أن يخلّص حبيبته سلمى من فكرة التشاؤم إلى فكرة التفاؤل، ويستخدم لذلك صورا مشرقة للمساء لبعده من تلك الحال، ويقول لسلمى إنّ السّواد الحالك الذي يسود الليل لا يفرق بين التّهرّ الجاري وبين المستنقع ويخفي كلّ ذلك بسواده، وكذلك الوجه الجميل يخفي الابتسامة التي يتمتّع بها الرجل الطروب، والأدمع التي تسيلها عينا المتوجّع من الآلام، هكذا الصورة الجميلة والصورة البشّية تغيبان تحت البرقع غير ظاهرتين للرؤية. كلّ هذا لأنّ حالة "سلمى" حزينّة، مضطربة. و"أبو ماضي" لم يتوقف في قصائده عند حدود المظاهر الطبيعية الصامتة، بل تجاوزها إلى مظاهر طبيعة حية، والتفت إلى الليل، والضفادع وغيرها من هذه المظاهر، فهو في قصيدة له بعنوان "الضفادع والنجوم" يقول():

مرّق الفجر جلابيب الدجى      ومحا من صفحة الأرض الرسوم  
فمشّت في سرّها مختالة      كملك ظافر بين قروم  
ثمّ قالت: لكم البشرى ولي      قد نجونا الآن من كبد عظيم

إن الضفادع حينما لاحظت النجوم تحتل مساحة الماء كاملة، ظنت أن هذا عدو قادم يحاول اجتياحها وطردها من موطنها، فأعطت لجند الضفادع أمرا بالتجمّع والاحتشاد لملاقاة هذا العدو المترصّص. فحينما طلع الفجر وأحسّت أنها نجت من كبد عظيم، فأسمعت البشرى لجندها. فصورّ الشاعر في هذه القصيدة أظلال النجوم وما إليها تصويراً بارعا، وتصوّر القصيدة معركة وهمية صنعها الطبيعة، وتدل على اندماج الشاعر في الطبيعة ومحاكاة لها في غاية الروعة والتصوير.

## المرأة

كان للحبّ دور بارز في آداب الأقوام المختلفة من العالم، وكانت المرأة منذ عصور بالنسبة للرجل هي المصدر الرئيسي لإثارة مشاعر الحب، فاتصل الرجل حولها اتصالا جعلت منه شاعرا مبدعا، فكتب ونظم أحسن آثاره ونتاجه حول المرأة. وأخذت المرأة حيزا كبيرا في آثار أدباء العرب منذ قديم الزمن، ولكنّ الشعراء لا يفهمون إلا أنّها جسد يُشْتَهَى؛ فأخذوا يصفون المظاهر الجسديّة في المرأة دون الاعتناء بما وراء الجسد من أحاسيس التي تؤدي إلى السير مع الحبيبة في عالم الخيال والأحلام.

وأبو ماضي عظّم شأن المرأة، واستولت في شعره مكانة رفيعة لم تظفر بمثلها في الأدب القديم، فلقد التفت "أبو ماضي" إلى مكانتها في المجتمع، وتوجه المرأة والرجل على السواء، نحو أسى المثل الإنسانية وتهذيبها بالمعرفة والإيمان. يقول في

<sup>٧</sup> إيليا أبو ماضي، ديوان (وهو مجموعة دواوينه) ط: ١٩٨٦، دار العودة بيروت. ص، ٧٦٦.

<sup>٨</sup> المصدر نفسه، ص، ٦٦٧.

قصيدته المشهورة بعنوان "السجينة"<sup>(١)</sup>:

لها الحجرة الحسناء في القصر إنما أحب إليها روضة وكتيب  
وأجمل من نور المصابيح عندها حياحب تمضي في الدجى وتؤوب  
ومن فتيات القصر يرقص حولها على نغمات كلهنّ عجيب

هذه الأبيات يعرف أن المرأة في شعر إيليا أبي ماضي لها مكانة كريمة وقد تعرض الطبيعة والأشياء الجميلة مثل المرأة المحبوبة.

### الشعور بالألم

لم يترك الألم شخصا إلا وأصابه بسهامه، مرّت على كلّ لحظات طوال أو قصار، عانى خلالها من الحزن والأسى على آمال ضاعت، وشعر كلّ واحد في لحظة من لحظات حياته أنّ الحياة في هذه الدنيا أصبحت عديمة الجدوى، وأنها كفاح طويل وعقيم، وأن لحظات السعادة والفرح فيها أقل بكثير من لحظات المشقة والعناء.

فإنّ الألم قد انعكس في الأدب وكان في أدب الرومانسيين أشدّ انعكاسا. ولقد عالج "أبو ماضي" هذا الألم في معظم قصائده؛ لأنه فقد والدته وترك وطنه في صباه، وبالأوضاع السياسية التي أحاطت بالعالم العربي بسبب الاستعمار من ناحية، والتخلّف والجمود من ناحية أخرى، فأثرت هؤلاء على نفسية الشاعر تأثيرا قويا مما جعلته يتألم ويتعذب أشدّ العذاب، ولقد أشار "أبو ماضي" في قصائده عديدة إلى الحياة الصعبة التي يعيشها هو وشعبه تحت وطأة الاستعمار، ويعانى مما يعانى منه أبناء وطنه من مآسي اجتماعية، ومشاكل معيشية، يقول في قصيدة "الفقير"<sup>(٢)</sup>:

نفس أقام الحزن بين ضلوعه والحزن نار غير ذات ضياء  
يبكي بكاء الطفل فارق أمه ما حيلة المحزون غير بكاء  
حيران لا يدري أيقتل نفسه عمدا فيخلص من أذى الديناء

يصحّ الشاعر أن نفسي مفعمة بالحزن والهم، وقد يخرج هذا الحزن في وجودي، وينشج المحزون كنشج الطفل الذي ماتت أمه، والشخص المهموم لا يجد حيلة إلا البكاء والأنين؛ فإنه حائر لا يعلم أيقتل نفسه لكي يتخلص من آلام الدنيا ومتاعها.

### الحنين إلى الوطن

إن المواقف الوطنية ابتدأت بمحبة الوطن والحنين إليه زادت في القرن التاسع عشر، وأن الافتخار بالوطن عادة ينشئ في قلب الإنسان ملكة لينصر الوطن وقضاياها، والمهاجرون لا ينسون بلدانهم العربية بل يبقى كلامهم عن الأوطان، ولا يجعلهم العيش مشغولا في البلاد الأجنبية عن تتبع قضايا مجتمعاتهم في سبيل التطور، حيث تمت جذورهم في تلك الأوطان، ولقد كانوا يتغنون بها دائما حتى أصبح الحنين إلى الأوطان من أبرز سمات الشعر في الأدب المهجر.

وإن حنين المهجرين وشوقهم إلى الوطن ليس له حدود، بل يصدر من أعماق القلب، وهو حنين صادق تصطحبه العواطف العميقة. و"أبو ماضي" كسائر الشعراء المهجرين يعبر عن موقفه الوطني، وله حالة الشوق إلى جمال طبيعة "لبنان"، فلذلك نجد اهتمامه الخاص بالقضايا الوطنية، وإن طبيعة لبنان طبيعة الآمال والأحلام، وحب الوطن باق في

<sup>١</sup> إيليا أبو ماضي، ديوان (وهو مجموعة دواوينه) ط: ١٩٨٦، دار العودة بيروت. ص: ١٣١

<sup>٢</sup> المصدر نفسه، ص، ١٠٥.

قلبه، ويشتدُّ كلما يتقدم الزمن.

إن أبا ماضي لم ينس صورة وطنه، بل يجسدها في حياته ويتغنى بطبيعته وجماله، كلما أُتيحت له الفرصة. وإن أحسن ما نظمته في "لبنان" قصيدة "وطن النجوم"؛ حيث يوجد في شعره حباً وحنيناً إلى وطنه الذي يتغنى به بأحسن المشاعر وأرق العبارات، ويتحدث عن الوطن الذي نزع عنه ويعتزُّ به، ولم تضعف الغربة من شوقه إلى وطنه لبنان، فارتباط الإنسان بحب المكان الذي نشأ فيه شيء طبيعي لارتباط حياته بذلك المكان، حيث أسرته وأهله وعشيرته فيه، وهو دليل صدق وإخلاص، وأنه يمثِّل انتسابه إلى المجتمع الذي كان يعيش فيه، ويبقى هذا الحنين دائماً في وجوده (١).

وطن النجوم... أنا هنا      حدق... أتذكر من أنا؟

يتسلق الأشجار لا ضجرا      يحس ولا وني

ويخوض في وحل الشتا      متهللا متيمنا

لا يتقى شر العيون      ولا يخاف الألسنا

يقول الشاعر في هذه الأبيات يا لبنان يا وطن النجوم... أتعرفني؟ أنا ذلك الولد الذي كان يصعد الأشجار دون تعب ومشقة، ويخوض في وحل الشتاء بالفرح والسرور، ولا يخاف من شرِّ عيون الناس وطعنهم وحسادتهم له. لقد ظهرت مظاهر الرومانسية في جميع قصائد "أبي ماضي" الشعرية، حيث كان مدركاً على المضامين الشعرية القديمة، وهذا ما نجده واضحاً من خلال أفكاره وآراءه التي اعتمد فيها على الذاتية التي تحتوي عواطف الحزن والكآبة والأمل، وأحياناً الثورة على المجتمع والتحرر من قيود العقل والتحليق في رحاب الخيال والصور والأحلام.

## المصادر والمراجع

١. إيليا أبو ماضي، "ديوان أبي ماضي" (وهو مجموعة دواوينه)، دار العودة، بيروت، ط: ١٩٨٦.
٢. زهير ميرزا، "دراسة في شعر أبي ماضي"، دار العودة، بيروت، ط: ١٩٨٦.
٣. رؤف، جهان صفوت، "شلي في الأدب العربي في مصر"، دار المعارف، القاهرة، ط: ١٩٨٢.
٤. د. عبد الرحمن واني، "الرومانتيكية في شعر إيليا أبي ماضي"، (وهي المقالة المنشورة في مجلة الدراسات العربية لجامعة كشمير، سنة ديسمبر ٢٠٠٣)
٥. إبراهيم الابيار، "شرح ديوان عنتر بن شداد"، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١٩٦٠.
٦. هداره، محمد مصطفي، "دراسات في الشعر العربي الحديث"، دار النهضة العربية، بيروت، ط: ١٩٩٢.
٧. د. هلال، محمد غنيبي، "الرومانتيكية"، ط: ١٩٧٣، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط: ١٩٧٣.
٨. أحمددي، عبد الحميد، "مظاهر رومانسية في شعر أبي القاسم الشابي"، فصلية إضاءات نقدية، العدد الرابع، شتاء، ٢٠١١.

١ إيليا أبو ماضي، ديوان (وهو مجموعة دواوينه) ط: ١٩٨٦، دار العودة بيروت. ص: ٧٣٦

